وقفت بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ عن أربع: شبابك فيما أبليته، وعمرك فيما أفنيته، وما لك مما اكتسبته وفيما أنفقته، فتأهب لذلك وأعد له جواباً ولا تأس على ما فاتك من الدنيا فإن قليل الدنيا لا يدوم بقاءه، وكثيرها لا يؤمن بلاءه، فخذ حذرك وجد في أمرك، واكشف الغطاء عن وجهك، وتعرض لمعروف ربك، وجدد التوبة في قلبك، واكمش في فراقك قبل أن يقصد قصدك، ويقضي قضاءك، ويحال بينك وبين ما تريد»[1].

(١) في الكافي بإسناده عن يحيى بن عقبة الأزدي عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: كان فيما وعظ به لقمان لابنه: . . .

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ
نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى
وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا
وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾
وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ۗ
وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ
فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ
نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا
فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ
مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ
كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا
كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي
النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ
أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ
وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ
أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾:

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟﴾ خطاب التنبيه لكل راء من المكلفين من الجنة والناس أمن سواهما أجمعين، ولا دليل على اختصاصه بالمشركين لمكان اطلاق العموم وعموم الإطلاق، ثم ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ حيث تستثني جماعة من هؤلاء توكّد واقع العموم.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ...﴾ لفتة مكرورة في الذكر الحكيم، ذكرى لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد، ورغم تكرارها هنا وهناك بمختلف المناسبات ترى جديدة في كل مرة، جادة نحو تذكير الإنسان النسيان.

و«كم» هنا كما في «تروا» هم كافة المكلفين - وعلّهم - في كل الأرضين، دون هذه فحسب، والتسخير له تعني لمسة من الملكية وشطرة من الغاية المعنيّة للخلق كله، مما يقرر لنا إمكانية الانتفاع من الكون كله، مما في السماوات وما في الأرض كلّه.

وهذه الآية لا نظيرة لها بهذه الشمولية إلّا ما في الجاثية: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا

فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١] [٢].

لا تعني ﴿لَكُم﴾ إن الله جعلنا مسخّرين للكائنات، وإنما ﴿سَخَّرَ لَكُم﴾ بتسبيل السبل العقلية والعلمية كفاعليات، والسبل القانونية الكونية كقابليات، حتى نتمكن من مختلف الانتفاعات مما في الأرض وما في السماوات، مهما اختص قسم منها بخوارق العادات الخاصة برسل الله ومن إليهم، ثم: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾ والإسباغ هو التوفير والإتمام، فلا تفريط من ربنا فيما أنعم علينا من نعمه مهما فرطنا نحن في جنبه! ثم ﴿ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾ حالان من ﴿نِعَمَهُۥ﴾ والنعم الظاهرة ككل هي المادية المرئية بمحاولة ودون محاولة، فالباطنة - إذاً - هي الروحية من فطرية وعقلية وفكرة وشرعة ربانية.

ثم ومن الظاهرة «ما سوى من خلقك وأما الباطنة فما ستر من عورتك ولو أبداها لقلاك أهلك[٣] مهما كانتا من الظاهرة في التقسيم الشامل.

كما الإسلام وهو من الباطنة هو من النعم الظاهرة إذ هو ظاهر لكل من يتحرى عنه كما من الباطنة ما ستر من مساوي عملك»[٤] ومن الباطنة الظاهرة ما هي ظاهرة لكل المسلمين كـ«النبي وما جاء به من معرفة الله عَزَّوَجَلَّ وتوحيده، ومنها ما هي غير ظاهر للكل كولاية أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ [٥].

(١) سورة الجاثية، الآية: ١٣.
(٢) راجع تفسير الآية في الجاثية من الفرقان يغنيك عما نختصره هنا.
(٣) الدر المنثور ٥: ١٦٧ - أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن عطاء قال سألت ابن عباس عن الآية قال هذه من كنوز علي قال سألت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال: أما الظاهرة فما سوى»...
(٤) المصدر أخرج ابن مردويه والبيهقي والديلمي وابن النجار عن ابن عباس قال سألت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عن الآية قال: أما الظاهرة فالإسلام وما سوى من خلقك وما أسبغ عليك من رزقه وأما الباطنة فما ستر من مساوي عملك يا ابن عباس إن الله تعالى يقول ثلاث جعلتهن للمؤمن صلاة المؤمنين عليه من بعده وجعلت له ثلث ماله اكفر عنه من خطاياه وسترت عليه من مساوي عمله فلم أفضحه بشيء منها ولو أبديتها لنبذه أهله فمن سواهم.
(٥) نور الثقلين ٤: ٢١٢ في تفسير القمي بسند متصل عن جابر قال: قال رجل عند أبي =

ثم ومن الولاية نفسها ما هي ظاهرة كالإمام الظاهر، وما هي باطنة كالإمام الغائب[١] وعلى أية حال فالظهور والبطون هما من الأمور النسبية وهذه تفاسير بمصاديق من النعم الظاهرة والباطنة، والتفسير بالمفهوم هو كالأول، كل ما ظهر لكل ناظر هو الظاهرة، وكل ما هو غير ذلك هو الباطنة، ولكن الثانية ليست بالتي لا تظهر أم لا تعرف مهما لم تظهر، ونعم الله ظاهرة وباطنة لا تحصى[٢] ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وهم النسناس منهم ﴿مَن يُجَٰدِلُ

= جعفر عليه السلام: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ...﴾ [لقمان: ٢٠] قال: أما النعمة الظاهرة فالنبي صلى الله عليه وآله وما جاء به من معرفة الله عز وجل وتوحيده، وأما النعمة الباطنة فولايتنا أهل البيت وعقد مودتنا فاعتقد والله قوم هذه النعمة الظاهرة والباطنة، واعتقدها قوم ظاهرة ولم يعتقدوها باطنة فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ﴾ [المائدة: ٤١] ففرح رسول الله صلى الله عليه وآله عند نزولها أنه لم يقبل الله تبارك وتعالى إيمانهم إلا بعقد ولايتنا ومحبتنا.

(١) المصدر محمد بن مسلم وحماد بن زياد عن الكاظم عليه السلام قال: الظاهرة الإمام الظاهر والباطنة الإمام الغائب.

(٢) نور الثقلين ٤: ٢١٣ في امالي الطوسي بإسناده إلى أبي جعفر عليه السلام قال: حدثني عبد الله بن عباس وجابر بن عبد الله الأنصاري قالوا أتينا رسول الله صلى الله عليه وآله في مسجده في رهط من أصحابه فيهم أبو بكر وأبو عبيدة وعمر وعثمان وعبد الرحمن ورجلان من قراء الصحابة - إلى قوله حاكياً عن رسول الله صلى الله عليه وآله: وقد أوحى إلى ربي جل وتعالى أن أذكركم بالنعمة وأنذركم بما اقتص عليكم من كتابه وأملى ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ...﴾ ثم قال لهم: قولوا الآن قولكم ما أوّل نعمة رغبكم الله وبلاكم بها؟ فخاض القوم جميعاً فذكروا نعم الله التي أنعم عليهم وأحسن إليهم بها من المعاش والرياش والذرية والأزواج إلى ساير ما بلاهم الله عز وجل من أنعمه الظاهرة فلما أمسك القوم أقبل رسول الله صلى الله عليه وآله على عليّ عليه السلام فقال يا أبا الحسن قل فقد قال أصحابك، فقال: وكيف بالقول فداك أبي وأمي وإنما هو أنا الله بك؟ قال: ومع ذلك فهات قل ما أوّل نعمة أبلاك الله عز وجل وأنعم عليك بها؟ قال: إن خلقني جل ثناءه ولم أك شيئاً مذكوراً، قال: صدقت فما الثانية؟ قال: أحسن بي إذ خلقني فجعلني حياً لا مواتاً، قال: صدقت فما الثالثة؟ قال: إن انشأني فله الحمد في احسن صورة واعدل تركيب، قال: صدقت فما الرابعة؟ قال: إن جعلني متفكراً راعياً لا بلها ساهياً، قال: صدقت فما الخامسة؟ قال: إن جعل لي شواعر أدرك ما ابتغيت بها وجعل لي سراجاً منيراً، قال: صدقت فما السادسة؟ قال: إن هداني الله لدينه ولم يضلني عن سبيله، قال: صدقت فما السابعة؟ =

فِي ٱللَّهِ﴾ جدالاً سيئاً نكراناً له أم إشراكاً به أو إنكاراً لوحيه واليوم الآخر ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فطري أو عقلي أو تجريبي أماذا من علم ذاتي ﴿وَلَا هُدًى﴾ رسالية أماهيه كحجة ربانية من المكتسب أم وأخيراً، ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ وهو كتاب الوحي الذي ينير الدرب على السالكين إلى الله إسباغاً لسائر الحجج آفاقية وانفسية، وقد فصلناها في آية الحج: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ . . . مُّنِيرٍ﴾.

وهذا هو الجدال بالتي هي أسوء ألّا يملك أية برهنة ذاتية أو كسبية إلّا تعنتاً على الحق وتعنداً للحق:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾:

﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ حيث يصاحبه علم وهدى وكتاب منير متروك عندهم إلى ﴿مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ﴾ الذي لا يحمل أيّة حجة إلّا التقليد الأعمى ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ﴾ هؤلاء الآباء وإياهم ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فإن أخطر الوسائل الشيطانية وأشرها هو الحمل على تقليد الآباء القدامى - فقط - بحجة انهم آباء، والمقلّد الأول في هذه السلسلة هو الشيطان الداعي إلى عذاب السعير، لمسة موعظةً موقظة مخيفة، بعد تلكم الأدلة العظيمة اللطيفة، تأخذ بأزمة القلوب غير المقلوبة، قارعة للقلوب المقلوبة، حيث يجادل أصحابها في الله دون أي إسناد إلى علم أو هدى أو كتاب منير من الله.

= قال: إن جعل لي مردا في حياة لا انقطاع لها، قال: صدقت - إلى قوله - ان سخر لي سماءه وارضه وما فيهما وما بينهما من خلقه. . . قال ﷺ فما بعدها؟ قال: كثرت نعم الله يا نبي الله فطابت ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ﴾ [إبراهيم: ٣٤] فتبسم رسول الله ﷺ وقال ليهنئك الحكمة ليهنئك العلم يا أبا الحسن فأنت وارث علمي والمبين لأمتي ما اختلفت فيه من بعدي من أحبك لدينك وأخذ بسبيلك فهو ممن هدي إلى صراط مستقيم ومن رغب عن هواك وأبغضك وتخلاك لقى الله يوم القيامة لا خلاق له». . .

﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ . . .﴾[1] ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2]:

هذه واضرابها تحمل الإسلام المطلق أو إسلام الوجه لله، وآيتنا ﴿يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ مما يجعلها يتيمة في آيات الإسلام، وقد يكون إسلام الوجه إلى الله كتقدمه لإسلام الوجه لله.

واشمل الوجه هنا للوجه المسلم إلى الله هو وجه الفطرة والعقل والعلم فإنه الدين القيم كما في آية الفطرة، فلما اسلم وجهه إلى الله هكذا يسلم وجهه لله بوجه الشرعة الربانية، وكل ذلك مصحوباً بالإحسان ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في إسلام وجهه، تزويداً لإسلامه في وجوهه المعرفية بالوجوه العلمية ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ في هذا السبيل ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ هنا ويوم يقوم الأشهاد.

فحذار حذار، إن الرحلة شاقة وطويلة، حافلة بالشبكات والأخطار، ولا زاد فيه إلا إسلام الوجه لله، ولا راحلة إلا الإحسان في الله، وليعرف السالك إلى الله أن خطر الوجدان ليس أقل من خطر الحرمان، وخطر السّراء ليس بأهون من خطر الضراء.

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾:

ولماذا ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ﴾؟ أتأسفاً عليه؟ وقد أديت ما عليك فكذبوك!

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١١٢.

أم زعم أنهم سابقونا؟ فـ ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ لا مفلت لهم عنا حين يرجعون ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾ إنباء الإخبار علمياً وواقعياً لما يرون العذاب ﴿بِمَا عَمِلُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ لا يعزب عنه مثقال ذرة!.

﴿نُمَتِّعُهُمْ﴾ هنا ﴿قَلِيلًا﴾ وكل متع الدنيا قليلة مهما كانت كثيرة غزيرة ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ بما عملوا ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ هو في الحق أعمالهم أنفسهم.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

«هم» المسؤول عنهم هنا هم المشركون المعترفون أن الله هو خالق السماوات والأرض، فـ ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ﴾ كله لله الذي يعترف بتوحيد خالقيته المشركون و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي يملك كافة البراهين آفاقية وأنفسية على توحيده و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على وضوح الحق للحق المتعالي عن كل شائبة وشاكلة.

﴿بَلْ﴾ هم يخالفون اعترافهم هذا بما يشركون، فقليل منهم يعلمون الحق وهم منكرون و﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ جهلاً عن تقصير في تقاليد آباءهم وكبرائهم، فالكل - إذاً - مقصرون، حيث الإشراك بالله في العبودية مع الاعتراف بتوحيد الخالقية مما لا يقبل القصور المطلق.

﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾:

﴿لِلَّهِ﴾ لا سواه ملكاً وملكاً، علماً وقدرة، بداية ونهاية وعلى أية حال كل ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لأنه الخالق لهما دون سواه، ولـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ غني في إن «الله...» «حميد» في هذه السلطة الملكية والمالكية.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾:

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾[1].

لقد تحدثنا عن الثانية في الأسرى بما قد يكفي تفسيراً للأولى وفيها زيادة عنها كالتصريح بأقلام شجرة الأرض، وسبعة أبحر إضافة إلى البحر، والثانية خلو عنهما إلّا ضعف البحر وهنا أربعة أضعاف، مما يؤكد لنا إنهما يمثلان الكثرة الكثيرة من الماء المداد، ولم يذكر فيهما كاتب للكلمات، وعلّه إشارة إلى إنه يحلّق على الجنة والناس أجمعين إن لو كانوا كلهم كاتبين وبأية سرعة ممكنة.

وكما لم يذكر فيهما الأوراق المكتوب عليها، لمحة إلى كل بساط الأرض بكل ما يمكن أن يكتب عليه، مهما كانت رؤوس الأقلام كأدقّها، فالكلمات كأنعمها وأرقها.

ففي ذلك المربع ذي الزوايا الشاسعة الشاملة كلما بالإمكان كونه مواداً من البحر الحبر وزيادة، وأقلاماً وكاتبين ومكتوباً عليه، يقول الله ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ وهناك ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾.

وبالنظر إلى كل قلم في مدى إمكانية الكتابة به، وكل كاتب كما يمكن أن يكتب، وكل مكتوب عليه من أجزاء الأرض وبسيطها، ومداد الأبحر الثمانية، نعرف سعة كلمات الله حيث لا تنفد بهذه الكتابات! في حين نعلم أن ليتراً واحداً من الحبر قد يكتب به بقلم واحد وكاتب واحد وكراسات عدة في خمسين سنة ملايين الكلمات التي تشكل مكتبة ضخمة، فضلاً عن

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠٩.

ذلك المربع الشاسع الواسع! إنه ينفذ حبر البحار وأقلام الأشجار وأعمار الكتّاب بكتاباتهم ﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَتُ رَبِّي﴾ و﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وقد تعني الزيادتان في آية لقمان أن الكلمات فيها أكثر مما في الأسرى، زيادة كلمات الله على كلمات ربي، فإنه الله قبل كونه رباً، والربوبية صفة فعل فكلماتها محدودة طالما لا نحيط بها علماً ولا إحصاء، والألوهية تحلّق عليها بزيادة للذات وصفات الذات ولهما كلمات كما لصفات الفعل.

لا نقول إن كلمات ربي هي ربع كلمات الله لمكان سبعة أبحر إلى البحر هنا، ومثله هناك، فإنهما لا تمثلان إلّا الكثرة، إلّا أن الكثرة في كلمات الله أكثر بكثير من كلمات الرب، وهي فيهما لا تنفد مهما اتسعت البحور وكثرت الأقلام، فإنها - أيضاً - كلها من كلمات الرب فكيف تحلق على كل كلمات الرب فضلاً عن كلمات الله!.

وكما الأقلام هنا تحلق على كل أشجار الأرض، كذلك البحر يعني كل بحارها أم والأرضين السبع كلها، أم وبحار السماء أيضاً.

هنا يروى ان أحبار يهود قالوا لرسول الله ﷺ بالمدينة يا محمد أرأيت قولك ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1] إيانا تريد أم قومك؟ فقال: كلّا، فقالوا: ألست تتلوا فيما جاءك أنا قد أوتينا التورات وفيها تبيان كل شيء؟ فقال: إنها في علم الله قليل فانزل الله في ذلك: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ...﴾[2].

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

(٢) الدر المنثور ٥: ١٦٧ - أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ان... وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: اجتمعت اليهود في بيت فأرسلوا إلى النبي ﷺ أن ائتنا فجاء فدخل عليهم فسألوه عن الرجم فقال: أخبروني بأعلمكم فأشاروا إلى ابن صوريا الأعور قال: أنت أعلمهم؟ قال: أنهم يزعمون ذاك قال فنشدتك بالمواثيق التي =